عُلا أحمد

تعالَي

AUSTIN MACAULEY PUBLISHERS™
LONDON * CAMBRIDGE * NEW YORK * SHARJAH

ريم: أنظر إليه بعينين مليئتين بالدموع، وأقول: إنني أتكفل بكل شيء، لأسمع بعدها صوتك ينادي: تعالَي يا ريم.. تعالَي.

****

أُومِن بأنَّ انبثاق الفجر يجلب معه الكثير مِن الأمل؛ لذلك تراني أسهر كثيرًا مع ألحان أم كلثوم، وأستمتع بفنجان القهوة خاصَّتي وأحدث الكتب والأوراق، وأنتظر الفجر، ومِن ثمَّ أستمتع بمشاهدته مع صوت فيروز.

"لقد كنتَ كالفجر يا سليم بالنسبة لي، بل وأكثر.. ولكنك لَم تفهم!".

انتظرتُ بزوغ الفجر، وشاهدتُه مليًّا تمامًا كما يحلو لي، ومِن ثم قمتُ لأستعدَّ للذهاب إلى العمل.

استعدادي يأخذ أحيانًا ساعة ونصف الساعة، يجب على الألوان أن تكون متناسقة، ويجب أن تكون الملابس محتشمة وغير ضيقة، ويجب أن تواكب الموضة أيضًا، أمَّا عن مستحضرات التجميل فهي لا تعني لي الكثير، أكتفي بالماسكارا وبمرطِّب الشفاه.

لطالما قيل في علم النفس بأن الملابس أو المظهر الخارجي يؤثِّر بشكل طردي على نفسية المرء، فمثلًا إن ارتديتِ عزيزتي الأنثى حذاءً بكعب عالٍ شعرتِ بنفسك كعارضة أزياء تمشي بكل فخر على المنصة، وإذا ما ارتديتِ سروالًا فضفاضًا شعرتِ بنفسك واحدة مِن مطربي الراب الذين غزَوا الطرب الأصيل.

وأمَّا عن الألوان الداكنة فهي دليل على الاكتئاب على عكس ما تشير إليه الألوان الزاهية.

أرتدي اليوم سروال جينز وبلوزة زهرية اللون.

"لقد كان لونك المفضل عليَّ يا سليم.. أتذكر عندما قلتَ لي: وكأنكِ وردة تمشي ويفوح عطرها أينما ذهبَت.. كم أحبُّكِ وأحبُّ هذا اللون عليكِ!".

أقف أمام هذا المبنى الكبير الذي بات مِن روتيني اليومي، أعمل كمحاسبة في شركة ضخمة، وأتقاضى أجرًا يسمح لي بالذهاب للتسوق مرتين في الأسبوع إذا ما أردتُ.

في استراحة الغَداء اعتدتُ أن أحتسي القهوة بعد تناول الطعام في الكافيه الذي يبعد عن مكان عملي نحو مائتي متر، وأقرأ بعضًا مِن الصفحات مِن كتابي لحين موعد العمل مجدَّدًا.. لَم يكن بالكافيه الكبير والمترف، كان صغيرًا وبسيطًا جدًّا تمامًا كما أحبُّ، وقلَّما تجد أناسًا يجلسون هناك في وقت الظهيرة، أي مكان للراحة بكل ما للكلمة مِن معنًى!

أذكر مِن قبل بأنني أحيانًا أستمتع بفعل هذا، ولا أتناول الطعام قط!

خالة أم محمد صاحبة هذا الكافيه.. لقد كانت بدينة بعض الشيء، ولكنها تتحرك طوال النهار كاللولَب، وتحفظ جيدًا موعد قدومي ومكاني المفضَّل وحتى قهوتي المفضَّلة.

- ما الذي أتى بكِ باكرًا اليوم يا عزيزتي؟ لَم تتناولي الطعام مجدَّدًا أليس كذلك؟

أبتسم وأجيبها:

- ليس لديَّ شهية، أريد القهوة فحسب.

تُحرِّك رأسها يمينًا ويسارًا فاقدةً الأمل مني، لأسمع صوتًا يقول لي:

- هناك ثلاث وجبات في اليوم، يجب على المرء أن يلتزم بها، الإفطار، والغَداء، والعَشاء.

أنظر إليكَ مندهشة مِن استراقك السمع والرد بهذه الطريقة لأجيب:

- عفوًا.. هل تُكلِّمني؟!

"لقد كنتَ دائمًا مِن دون سابق إنذار يا سليم.. تمامًا كالموت".

- أجل، أحدِّثكِ.. اعذريني.. لقد سمعتُ ما دار بينكما دون قصد، وشعرتُ بأنه عليَّ أن أقول ذلك، ولقد بانت ملامح الحزن والخيبة على وجه الخالة أم محمد، هل هي قريبتكِ؟

- لا.. ولكنني آتي إلى هنا كل يوم عمل، والآن يجب عليَّ أن أذهب.. آه.. وشكرًا على المعلومة، سأحاول الاستفادة منها.

"كم كان جميلًا يا سليم لو بقينا سَوِيًّا.. يجمعنا الحب والضحك والمزاح حتى عند عبوس الحياة في وجهنا.. أتذكَّر عندما جئتُكَ مرة محمَّلة بحزن كبير، وحدَّثتُك عن سبب انزعاجي وغضبي، فقلتَ لي: حسناً.. هيَّا نقوم بشتمهم سَوِيًّا، وضحكنا".

في آخر النهار عند وصولي إلى فراشي دون تناول العشاء تذكَّرتُك وابتسمتُ، وأعتقد بأنني تمنَّيتُ لو أراك في الغد، ولا أعلم ما السبب.. تمامًا كعدم تناولي للطعام بشكل كافٍ، لا أعلم ما السبب!

لَم تكن حياتي مملَّة أبدًا، كنتُ أستمتع بكل لحظة عُمْرٍ تمضي، أحبُّ عملي كثيرًا، وأحبُّ مكتبتي التي تزداد كتابًا يومًا بعد يوم، وأقضي العُطلات في سفر، وتعلُّم لغات أخرى، واكتشاف عوالم جميلة، وأنتظر بزوغ الفجر كل يوم، والأهم مِن ذلك لديَّ صديقة ثرثارة، وتمتلك قلبًا طيبًا.

بالنسبة لفتاة شرقية مثلي، لَم يكن الأمر سهلًا أبدًا أن تبتعد فتاة عن عائلتها، وتعيش بعيدًا عنهم وهي ليست تحت كنف رجلٍ ما، ولكنني فعلتُها!

لطالما اعتبرتُ كل ما أقوم به إنجازًا عظيمًا، فعلى الإنسان أن يعطي قيمة حتى للأشياء الصغيرة التي يقوم بها؛ كي يشعر بأنه إنسان ووجوده مهمٌّ.

كتبتُ لك يا سليم ذات يوم عندما ساءت أحوالك قليلًا:

"بالرغم مِن ذبولك، فإنَّ وجودكَ في هذا العالم نعمة كبيرة؛ لذلك حمدًا لله حمدًا كثيرًا".

ليس مِن السهل خرق العادات.. الأعراف والتقاليد، ولستُ هنا بصدد التحفيز على القيام بذلك، ولكن مِن الجيد أحيانًا أن تحدِّد مصيرك بيدك، وأن تختار ما تحب صُنعه، وتقاتل مِن أجله، ولكن مع احترام ما تربَّيتُ عليه، فمِن دون رضا الوالدين سوف نضلُّ الطريق حتمًا.

قاتلتُ كثيرًا مِن أجل اكتشاف عوالم جديدة، فقد كان هذا شغفي الوحيد بجانب الكتابة!

توصَّلتُ إلى اتفاقية مع عائلتي، واستطعتُ السفر إلى الخارج، كنتُ ما ألبث بالعودة إلى المنزل حتى أشتاق إلى مدرجات الطائرة وصوت الكابتن، حتى حصلتُ على عقد عمل في شركة ضخمة وذات سمعة جيدة جدًّا، فاضطرِرتُ إلى الاستقرار في الخارج بعيدًا عن عائلتي، مع الالتزام بمكالمة الصباح على التليفون كل يوم قبل ذهابي للعمل وإلى مكالمة تصبحين على خير.

كنتُ في منتهى السعادة في كل مرة أتكلم فيها مع والدَيّ، فقد كانا فخورَين بي كثيرًا على عكس بادئ الأمر، جميل جدًّا هو أن تكون محاربًا واقعيًّا! ما معنى ذلك؟ سوف أقول لكم.

دائمًا ما كنتُ أبحث عن مشروعات كتابية وأدبية التي كانت تستغرق نحو شهرين أو أقل، وقد طُلِب مني ذات يوم في مشروع كتابي بأن أكتب عن النقطة التي أجد بها نفسي الآن.. فكَّرتُ كثيرًا وكثيرًا.. لَم

أعلم ماذا يجب أن أكتب إلى أن تذكَّرتُ سؤالَ غريبٍ ما في أول وآخِر لقاء لنا، وهو: ما مواصفات فارسك على حصانه الأبيض؟

حملَقت به لثوانٍ، وتلعثَمتُ بالقول:

- لا، ليس لديَّ واحد في مخيلتي.

أجاب:

- وكيف لا؟! جميع الإناث لديهنَّ هذه التخيلات!

أجبتُ:

- صدِّقني.. أفكِّر بأشياء أجمل مِن ذلك، أفكِّر بعملي الخاص، وأفكِّر ببلدان كثيرة أود اكتشافها، و...

قاطعَني وقاطَع ابتسامة على شفتي، وبريقًا لامع يسطع مِن عيني، وأملًا كبيرًا في قلبي يفضي إلى الخارج، وقال:

- حسنًا، فهمتُكِ يا صاحبة الأحلام الوردية، يا صاحبة الخيال الواسع، ولكن لتكن نصيحة مني، سوف تحاربين مِن أجل ذلك، ولن تَصِلِي لشيء، وكنصيحة أخرى حاولي منذ الآن أن ترسمي مواصفات لشخصك المفضَّل، وإلا فلن تجِدِيه.

وضحك ضحكة استهزأ بها مِن بريقي وأملي وأحلامي، ولكن حينها عرفتُ مَن أنا، وما المرحلة التي أقف بها وأعيشها وأعايشها أيضًا.

حينها ذهبتُ إلى المنزل، وخبَّأتُ بعضًا مِن كلامه في عقلي لأكتب بعدها في ذاك المطلوب مني: أنا فتاة أحلامي واقعية جدًّا، ولكن عليَّ أن

أحارب لأصل لها؛ لذلك أعتقد بأنني أُدعَى الآن في هذه المرحلة: محاربة واقعية.. أليس كذلك؟!

لقد كنتُ يومها مِن المميزين في فلسفتي هذه، ولكن أليست هذه هي الحياة.. تقابل أشخاصًا.. تسمع كلماتهم.. تقابل أفعالهم، وتأخذ ما يحلو لك، وتنسى الباقي؟ وإن لم يكن كذلك إذًا لماذا يقال إنَّ النسيان نعمة؟

لنعد إلى سليم؛ كي لا يشعر بأنه ليس الموضوع الأساسي الذي نتكلم عنه هنا، وإلا سوف يحزن كثيرًا، وبالحديث عن سليم والحزن لَم أكن أفهم في بعض الأوقات سبب حزنه، كنتُ أستغرب حزنه، وأحاول بشتَّى الوسائل أن أجد السبب، ولكن لَم أكن أفلح كثيرًا، ولعلَّكم لا تصدقونني، ولكن أنا سأروي لكم حدثًا ما وأنتم احكموا بأنفسكم.

في ذات المرات كان يواجه مشكلة ما في حسابه البنكي، قلتُ له بأنَّ كل شيء على ما يرام، وبأنه ليس عليه أن يقلق كل هذا القلق؛ فأنا تفحَّصتُ كل الأمور المتعلقة في حسابه لكوني أعمل في المحاسَبة، وكل شيء كما هو.. لا داعي للقلق، ولكنه كان مصمِّمًا على قراره، ورأيه بأنَّ أحدًا ما قد اخترق الحساب خاصَّته، فقلتُ له حينها:

- حسنًا.. سوف أعاود الفحص، وسوف نتأكد مرة أخرى. ثم ذهبتُ لألتقي بصديقتي، عدتُ وحاولتُ الاتصال به مرارًا وتكرارًا، ولكنه لَم يردَّ، وفي آخِر المطاف بعث لي برسالة تقول: "شكرًا لكِ على كل شيء".

تسمَّرت في مكاني لدقائق، وبعدها كتبتُ:

- أكلُّ شيء على ما يرام؟! ماذا جرى؟!

لَم يجب لمدة ثلاثة أيام وكأنه في حداد ما، وأنا شاركتُه حداده الذي لا أعلم به مَن الميت!

برأيكم لِمَ أقام هذا العزاء؟ فأنا لا أعلم حتى لحظتنا هذه! أجل.. صدِّقوا، وأهلًا بكم في عالم سليم!

ولكن لآخذَكم إلى عالمي قليلًا، فهو أبسط بكثير مِن عالمه.. "عذرًا سليم، ولكن يجب أن يكتمل هذا الكتاب".

عالمي أنا عالم بسيط جدًّا، على قدر بساطته على قدر صعوبته، وهأنتم تعايشون فلسفته الآن حتى انتهائكم مِن القراءة.

لقد كنتُ فتاة العائلة التي فعلَت ما تريد مع رضا والديها، وتلك الفتاة التي تعلم ماذا تريد، وكيف تحصل عليه بالرغم مِن جنونها، إنني ببساطة فتاة تحب الحياة، ***وأحببتُكَ أيضًا يا سليم.. فالشيء بالشيء يُذكَر.. أليس كذلك يا حياتي؟***

فلسفتي التي أعيش بها هو أنني رهن اختياراتي، وهذا ينطبق على كل شيء!

ففي يوم مِن الأيام سألني أحدهم في العمل لمَ أنا مكتئبة، فقد اعتاد أن يدعوني بالفتاة التي تنثر الفرح في كل مكان تذهب إليه.

قلتُ حينها بأنني اخترتُ كآبتي اليوم بنفسي، أريد اليوم أن ألعب دور الكئيبة، أريد أن أعيش كآبتي بكل حرية وبكل ما للكلمة مِن معنًى.

نحن فقط مَن نقوم باختيار أدوارنا، فمثلًا انظر إلى مجهول امرأة، لقد اختارت أن تكون تلك المرأة التي تعمل داخل المنزل، واختارت أن تلقي اللوم على مسار حياتها، وتعيش على أنها تعيسة، أليس هذا جنونًا؟

لنُلقِ النظر إلى الأمر بمنظور آخر، لو أنها اختارت أن تتقبل حياتها كما هي، واختارت أن تصنع مِن حياتها أو في حياتها شيئًا ما يعود عليها بقيمة معنوية، لو أنها اختارت أن تنظِّم وقتها بدلًا مِن الوقت التي تعيش به تعيسة لكانت في أحسن حال مِن منظورنا الآن، ولكنها اختارت أن تعيش تعيسة، ولها حق الاختيار، وهنيئًا لها فيما اختارت!

لدينا أيضًا مجهول رجل اختار أن يكون أبًا قاسيًا، أو مجهول فتاة اختارت أن تعيش دور الضحية، أو مجهول شاب اختار أن يعيش حياته ليس آبِهًا بأي شيء.. كلها اختيارات أنفسنا، وكلها يمكن أن تكون صحيحة في وقت ما، ويمكن أن تكون خاطئة أيضًا.

ليست هناك أي قاعدة في الحياة، إنها الحياة التي تستمر، وتجبرنا على الاستمرار والاختيار.

هناك مَن يقول الآن في قرارة نفسه: أنتِ لستِ إلا بفتاة مرفَّهة، لَم تعلمي ولَم تتعلمي ما معنى الأقدار، وما معنى الأوجاع.

لذلك سأقول لكم على سري ووصفتي: دعني في القاع، ولا تمدَّ لي يد العون!

أن تعيش فترة ما في القاع يعني أن تكبر.. أن تنضج.. وأن تتغير، لن يؤلمك سقوطك إذا كان هناك شخصٌ ما يمدُّ لك يد العون في كل مرة تسقط بها، سوف تنسى ألمك، وتحاول التمسُّك به لتخرج، ولكن أنا التي صرختُ وقلتُ دعوني كي أتعلم.. دعوني كي أنضج.. دعوني كي أتغير وكي أتألم.

عشتُ هناك، وتحسَّستُ والتمستُ أعماقه، استنشقتُ مِن عفونته، وعانيتُ مِن تعرُّجاته، وحتى جسدي تزيَّن مِن كدماته، فكنتُ في كل مرة أتحرَّك بها يمينًا ويسارًا كان يجب عليَّ أن أتألم.. ألمي ووجودي هناك لَم يكن خسارة، لقد رأيتُ العالم مِن تحت.. مِن القاع.. لقد رأيتُ جذوره وبذوره، تذوَّقتُ مياه السقي.. دهسَتني الأقدام.. لطخَتني القذارة.. رأيتُ أحزان الناس وأفراحهم.. دموعهم وضحكاتهم؛ لذا أنا أعرف تمامًا كيف أنَّ القدر يلعب أحيانًا لعبته، ويأخذ بك إلى أماكن لَم تكن تودُّ لتذهب إليها يومًا، ولكن هناك أيضًا عليك أن تختار، فما حياتنا إلا عبارة عن اختيارات متسلسلة تقوم باتخاذها بنفسك، فلا تجلس وتندب حظك إن كانت العواقب وخيمة، خذ العبرة منها، وكن حكيمًا في المرة المقبلة.

لذا كنتُ أعيش هكذا ببساطتي، البعض يعتقد بأنني خرقاء، والآخر بأنني مغرورة شمطاء، ولكني لستُ إلا بفتاة تلاحق سعادتها، وأحيانًا تتلبَّس الغباء.